# نتألم أفضل بالحب

رواية

توفيق بوشري

الطبعة الأولى

2020م ـ 1442هـ

ديوان العرب

للنشر و التوزيع

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
ديوان العرب
حقوق حلمك

**عنـــوان الكتاب: نتألم أفضل بالحب**

**اســـــم المـؤلف: توفيق بوشري**

**التصنيف الأدبي: رواية**

**رقـم الإيـــــداع: 22288 / 2020**

**الترقيـــم الدولي: 3 - 31 - 6749 - 977 – 978**

**تـصـمـيـم الغلاف: د. محمد وجيه**

**التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين**

**التنسيق الداخلي: د. محمد وجيه**

**رقـــــم الطبـعـة: الطبعة الأولى**

**المديـر العام: د. فادية محمد هندومة**

**المدير التنفيذي: د هبة ماردين**

**دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد**

**جوال: 00201211132879**

**البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com**

**حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.**

# نتألم أفضل بالحب

**رواية**


## توفيق بوشري

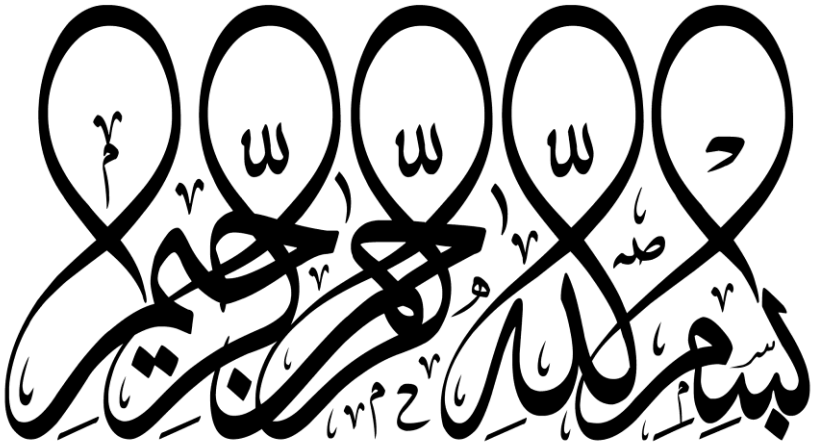
بسم الله الرحمن الرحيم

# إهداء

**إلى دار ديوان العرب المحترمة**

**نصيرة للأدب والثقافة...**

**إلى أمي، إلى أبي وإخوتي....**

**إلى سيدة كتاباتي رعاية واحتضاناً**

**حبيبتي....**

**إلى وغديّ الصغيرين حجماً فحسب**

**هارون وفاروق....**

**توفيق بوشري**

****

**Here's much to do with hate, but more with love**

هناك الكثير لنقوم به بفعل الكراهية والحقد، ولكن هناك أكثر بكثير يمكن تحقيقه بالحب

**وليم شكسبير**

- هذا الحب يؤلمني..

- يجب عليك أن تقرئي للسيد سعيد[1] ..

- ذلك الفاشل..

- تريدين إنهاء النقاش أم تقصدين ذلك؟

- لا أريد أن أوضح لك.. من لم يفهم إشارتنا لم ترشده عبارتنا[2] .. قالت ما قالته وهي بين ابتسامة وشبه قهقهة..

- النوم رحمة.. تصبحين على خير يا سليلة الحلاج نسخة ألفية التصوف الرقمي..

توجهت إلى غرفتي، حدقت في فضائها الضيق قليلاً دون أية غاية، رغم أني لم أكن مؤمناً باللاشيء. ارتميت وسط فراشي البارد مستلقياً على بطني مثل سباح بدين. أخبرتني مراراً أن تلك النومة سيئة، وأنها مؤذية للصحة.. حسناً، كيف يمكن أن أضحي بمتعتي مقابل شيء متوقع فحسب، شيء لا يوجد بعد، على الأقل بالنسبة لي ولتجربتي التي تأبى أن تقارن نفسها في

[1] سعيد ناشيد: باحث وكاتب مغربي مهتم بالفلسفة والتجديد الديني.
[2] العبارة الأصلية منسوبة إلى الحسين بن منصور الحلاج المتصوف العربي ومفادها: (من لم يقف على إشارتنا، لم ترشده عبارتنا)

تمرد جزافي بالغير حتى لو كنا واحداً بمعنى ما.. ربما ليس جيداً أن أكون كائناً لحظياً، لكني قصدت على الدوام ذلك، في بحث عن معنى ما لوجودي الشخصي على الأقل. لم أستطع النوم، فكرت قليلاً فيما قالته، لولا تجربتي لما اهتممت لعبارتها: هذا الحب يؤلمني.. آه، لقد جربت ذلك أيتها المتوثبة الصغيرة ذات الصدر الذي لا يناسب سنها ولا قدها البتة، كنت أريد أن أخبرها بملاحظتي مراراً من قبيل الدعابة، لكن علمت أن ادعاءاتها بأنها تكبر سنها عقلياً وتجربة بكثير كانت مجرد كلام لإثبات الذات خاصة في مجتمع لا يمنحك أية فرصة لتعيش لحظتك بكل تفاصيلها وتفاهاتها ومتطلباتها بأريحية.. يطلبون منك أن تكون رجلاً في السادسة وأن تكوني امرأة في عشر سنين.. هل يجدر بنا أن نعتبر هذه ثقافة؟ في غير ما مرة انتبهت إلى نهديها: هل هي حقاً عشرينية؟ أقهقه بيني وبين نفسي وأنا أتساءل: لم هذه الملاحظة؟ لا يتعلق الأمر بنزوة جنسية محرمة بتاتاً، ربما نحن نميل إلى عدم تصديق ما يقال عنه حقيقة، لأننا مجتمع كاذب، مريض بالكذب والخداع والادعاء.. نخشى الاعتراف لأننا تربينا على أنه انتقاص من شخصيتنا وحضورنا وسط هؤلاء الحمقى والمجانين.. أغمضت عيني، مع ذلك لم أستطع النوم.. إنها تحب.. يسعدني ذلك مبدئياً، لا أعرف

الشخص الذي تحبه، فقط مستعد لتكسير ضلوعه إذا ما كانت هناك علاقة وخذلها. أخذت أعد الخراف، بلا فائدة. تقلبت مراراً وتكراراً، عدت لأستلقي من جديد على بطني، وضعت رأسي تحت الوسادة، تخيلت أني في كهف، لا شيء. عندما يزورك الأرق حتى الظلام يصير كمصباح كهربائي عنيد يكاد يزيح الستائر ليلج المكان نكاية في عشاق الغرف الحالكة. عاد بي التفكير إلى السي سعيد، كتابه[3] جميل وحيّ، خاصة عندما يحلق في فضاء الفلسفة كمعيش غير ملتفت لأولئك المرضى الأكاديميين المُصِرِّين على قتل كل شيء ليظلوا سادة كراسيهم العفنة وأوضاعهم الواهمة.. النوم رحمة حقاً.. يا إلهي، كيف أخرج من هذه اللحظة؟

ما كان عليك أن تنام بعد الغداء. خاصة وأنت تأخذ قيلولة حلزون. وما إن بدأت بعد وقت أعتقده طويلاً أسمع أو أتوهم سماع شخيري من العالم الآخر، حتى فاجأني طرق على باب الغرفة..

- من؟ سألت متوتراً..

- هذه أنا..

[3] التداوي بالفلسفة لصاحبه سعيد ناشيد.

لم أجب في الحال، صرت ألعنها وألعنني وألعن النوم واليقظة.. توعدتها بشتى صنوف العقوبات التي بلغت القتل والإعدام..

- هل أدخل..

كانت قد صارت وسط الغرفة الصغيرة تقريباً. ترتدي سروالاً قصيراً وقميصاً بلا أكمام مثل لاعب كرة ضعيف البنية..

- ماذا تريد شيكاتارا[4] ؟

- من هو شيكاتا.. قهقهتْ..

قاطعتها: لولا قتل اللحظات بعضها بعضاً مع بعض العقل والأخوة لكنتِ ميتة الآن.. شيكاتارا أطول منك، مع العود نفسه تقريباً..

ضحكت وهي تضع يمناها على ثغرها، ليس معنا أحد من أجل كل هذا الخجل من ترك العنان لأسناننا حتى تعلن عن وجودها حتى لو كانت مسوسة، منخورة.. مكسورة أو كدرة اللون، لا حاجة لأن نمتلك هوليوود

[4] لاعب نيجيري شيسوم شيكاتارا.

سمايل[5] حتى نضحك دون مركب نقص ولو في حضور أكثر من نخشى انتقاداتهم أو لنقل لمزهم وهمزهم..

- نمت؟

- كنت تعتقدين أني أمشط شعر جني أقرع باغتني من تحت السرير أو خرج من جدار الغرفة؟

نظرتُ مجدداً إليها، تأملتها طويلاً. ابتسمت ولم أسمح لها بالكلام. أحسست بأنّ لدي كلاماً كثيراً لا أعرف كيف أقوله أو أصوغه أو حتى أنسق بين شتات أجزائه. أسوأ اللحظات تلك التي نشعر فيها بشيء ولا نجد لا الكلمات أو الأسلوب لكي نعبر عنه، نحن إخوة وهذه الأخوّة تعيشنا، أفكر هل نعيشها؟ هل نضع بيننا وبينها افتراضاً مسافة كافية لفهمها؟ هل نستطيع أن نتخلص من مفهومنا الاجتماعي أو النفسي لها؟

- حسناً، ماذا تريدين؟

- هل تعتقد أنه سيحبني؟

[5] تترجم عن الانجليزية بابتسامة هوليوود وتدل في صناعة الأسنان على تبييض والعناية بالأسنان لتصير ابتسامة الشخص شبيهة بنجوم هوليوود

- ما الذي ينقصك؟

- أنا أتحدث بجدية، هل من الممكن أن يحدث هذا..

استغربت لسؤالها، لا أقصد السؤال في ذاته، قصدت كيف تتحدث عن إمكانية الحب المتبادل بغض النظر عن ثقتها الزائدة في نفسها، جميلة، رشيقة، معتدلة القد، لا طويلة يرنو إليها حبيبها من أرضه البليدة إلى سمائها البعيدة ولا قصيرة يحملق في وجهها من عالٍ، كما لو كانت طفلة هاربة من مدرسة ابتدائية.. أنيقة كممثلة جديدة، هي تقول دائماً خاصة بعد صعقة الغرام بأنها سيدة النساء ومن الغريب أنه لم يهتم بها كحبيبة..

- الحبّ ليس خطة..

- هل يمكن أن يحبّ الساحرة الشريرة بدلاً مني؟

- قلت لك بأنه لا ينقصك شيء يا ابنة أمي وأبي..

- سيحبني..

- أنا أريدك هكذا إيجابية..

- مع أنك سلبي.. لم تقل أي شيء.

هل يمكن أن أواجهها هنا، سأصرخ: أنت فاتنة وهو أعمى.. طبعاً لا أفعل ذلك، في كثير من الأحيان يصر غضبي على استفزازي لأسايرها في تهافتها، يفعل ذلك كلما واجهت متعالماً أو مدعياً أو جاهلاً ببساطة لا يعلم شيئاً عن جهله مثل خنزير ميل[6] في مواجهة سقراط التعيس، لست سقراطاً أنا، وليس هذا تواضعاً، ولن أقول بأني أفضل من سقراط[7].. لنعتبر هذا مزحة ثقيلة. أنا محظوظ لأنّ لدي دائماً نوعاً من التردد حتى في أقصى حالات غضبي تجعلني أعيش سيناريوهين، السيناريو الفعلي؛ شخص يجادلني حول كون الفتيات في زمننا هذا كلهن عاهرات، وسيناريو موازٍ؛ شخص أكاد لا أعرفه يمضغ كلاماً مزعجاً أو كأني بها لغة غامضة أصلاً. أساير مثل أبله ثم أمضي بين غضب هادئ وسخرية مستاءة للغاية، لست من أنصار جمعيات حقوق المرأة، أولئك يحفرون حفراً، ثم يردمونها في حضور البلهاء والأغبياء. أحب فقط أن أكون حكيماً بعد هذه السنين القليلة التي عشتها في هذا الجزء من العالم، فيما أدعي.. وقد يكون الآخرون على صواب..

[6] جون ستيوارت ميل: فيلسوف واقتصادي بريطاني.
[7] فيلسوف يوناني.

- نشرب قهوة؟

- ؟؟

- ننام؟

- إذا أخبرْتُهُ بأن صديقة لي تحب شخصاً وهو لا يعلم، هل سيشك في شيء؟

- الآن؟

كادت تأخذ باب الغرفة في يدها وهي تغلقه وراءها بتوتر مشاغب، كنت سأصرخ بدوري: بهدوء أيتها العاشقة الحقيرة، الناس نيام.. كنت.. كدت.. لقد قلت بأني عالَمَان، شخصان، تنبهت للمفارقة وعشتها كفكرة كالعادة، هو نوع من الضعف ولكن يوحي لي عقلي بأنّ هناك دائماً شيئاً فعلياً هو الصواب حتى في أوج الجنون..

****

قبل حوالي عشرين سنة، كنت تلميذاً في ثانوية تقع في أقصى المدينة. طالبت بدراجة مراراً وتكراراً، حتى تحول الأمر من مجرد حاجة إلى حلم. كنت أحسد أقراني وهم يسبقونني على دراجاتهم المتنوعة الماركات والأشكال والألوان، خاصة تلك التي اقتنوها من باعة السلع الأجنبية المستعملة، منها ما يفرمل بحركة الدواستين إلى الخلف، كانت تستهويني أكثر دراجة فتاة من حيٍّ راقٍ في المدينة، متينة ومزودة بمحولات سرعة وجرس وأضواء في غاية الإتقان وبراعة الشكل.. الفتاة أيضاً كانت كأنها قطعة من تلك التحفة، صديقي عزيز كان يعشقها لدرجة أنه يهرب بمجرد أن يراها مقبلة، كان يقول بأنه لا يتحمل رؤيتها، يشعر بقلبه سيتوقف عن النبض. لم أفهم ما كان يقوله لحظتها. أبي لم يُعِر أمر الدراجة أيّما اهتمام يذكر، عندما نُصر على أمر، يرمي باللائمة على حاجتنا إلى كل فلس لبناء البيت، لقد كرهنا البيت.. أمي هي الوحيدة التي فعلت الكثير حتى تلبي مطالبنا، لأكون أكثر تحديداً مطالبنا الصغيرة، الدراجة كانت بمثابة طلب خطير. ربما فعلاً كان يتعلق الأمر بالمال، لكن الواقع أن والدنا كان سكيراً ومدخناً ومقامراً، حتى أننا كنا في كثير من المرات ونحن صغار نساهم في حماقاته إن لم نسمها جرائمه، يجمعنا من حوله ويطلب منا اختيار أرقام معينة وهو منحن على

أوراق يملؤها بعناية فائقة محذراً إيانا من لمسها أو تمزيقها.. أتذكر أني لم أكن أبالي بما تعنيه تلك الأرقام، اعتبرتها لعبة جميلة، حتى أني في مرة طالبته بتغيير رقم اخترته، بدعوى أنه لا يعجبني فكان من نصيبي صفعة اختلطت بفضلها في عقلي كل الأرقام لتصير معكرونة إيطالية..

حصلت على الدراجة بعد حرب متمفصلة لم تنتهِ بسلام نهائي، في كل آن أحدث أمي عن مزاياها، أني سأساعدها عندما تكون عائدة من السوق بحمل القفة وغيرها عليها، ألبي طلباتها بسرعة، دون أن أقوم بحركات مراهقة قد تودي بحياتي، كانت تؤمن بأني عاقل، بينما لم أكن أعرف هل كنت عاقلاً فعلاً بمفهومها أم بطريقتي.. مرات أخرى تمردت وامتنعت عن الطعام، لم أشعر بعذاب أمي وهي بين مطرقة رغبتي وسندان امتناع أبي عن صرف نقود كثيرة في شيء يراني في غنى عنه، إنه لا يحتاج إلى دراجة. لم يسبق له حتى أن رافقني إلى المؤسسة، كنت أتغيب أحايين كثيرة لكي يطالبني الحارس العام بإحضار أبي، النتيجة أني أتلقى تهديدات بعقاب شديد مؤجل باستعمال خرطوم مياه سميك، دون أن يهتم لأمر حل المشكلة دائماً، رافقتني أمي لتوقع على التزامات بالتوقف عن التغيبات. أبي لم يكن يعرف حتى المستوى الدراسي الذي بلغه كل منا. عندما كبرنا، استعدنا

الحكاية بسخرية مؤلمة.. أخي الأوسط مازال يردد في كل مرة نتذكر ماضينا: أب بيولوجي يعتقد أن الأولاد مثل صناعة الدمى الصينية.. كان يحب أن يلهو بنا ونحن رضع إلى حوالي الخامسة، عندما تصير لنا أفواه قادرة على الكلام والرغبات، عندها يولينا ظهره، يرمي بنا مجازاً في علبة اللعب القديمة. حصلت على الدراجة بعد أن تعرضت أمي لإهانات متعددة، لقد فعل فقط لكي يتوقف اجترارها للموضوع، اشترى راحته.. كانت دراجة جد بسيطة، المهم لم أشعر بذلك في البداية، كنت مأخوذاً بها، لم يسبق لي أن امتلكت شيئاً كهذا يسير على عجلتين ترفرفان بي في الأزقة والشوارع، كنت تعلمت سياقتها بفضل صديق لي. لكن كان لا بد أن أتعود على دراجتي، كانت مختلفة قليلاً، لم يمضِ زمن حتى صرت ماهراً في ترويضها لكي تجري بي في كل مكان بسلاسة وسرعة، هذه الدراجة كانت أول حب يؤلمني، لا أستطيع أن أصف كم كنت سعيداً عند رؤية أمي تجرها جراً إلى بيتنا، أحضرتها من السوق بثمنٍ بخسٍ بجده والدي خسارة.. يمكن أن أقول بأن الفقر أو البؤس إضافة إلى أب بيولوجي؛ علمني كل هذا حب الأشياء بشغف ووجع، بل حتى شبق، اكتشفت الحب المريض بالامتلاك، في غياب العطاء..

تركت سيارتي في السوق التجاري، عرفت أني سأقطع طريقاً طويلاً لكي أصل إلى غايتي، لم أكن مستعداً لتضييع الوقت في البحث عن مكان لركن السيارة، إنها أول سيارة أحصل عليها بعد أن اشتغلت لمدة سبع سنوات، لم تكن بالعربة التي يلاحظها الجميع ولكنها كانت لي، ذكرتني بالدراجة البئيسة مع فارق كبير، أني حققت ما رغبت فيه بشكل ما دون حروب مصطنعة.. حسناً لم أكن تخلصت من حب الامتلاك بشكل نهائي، حاولت بجدية. عرجت على بائع الهواتف الذكية، اقتنيت واحداً، لم يكن من جيل أخير، المهم قال بأنه يشغل اليوتيوب والفايسبوك... هذا كاف بالنسبة له. قطعت مسافة لا بأس بها، لأجدني أخيراً أمام الدار. كلما زرته أتذكر عندما رافقته للمرة الأولى إلى هنا، لم أستطع أن أتظاهر بأني لم أرَ دمعته تنزل ببطء لتتخلل لحيته، لم يسبق لأي منا أن رآه يبكي.. عرفناه قاسياً مهملاً، عرفناه شبيهاً بتمثال متحرك.. رغم كل ما عانيته شخصياً لم أستطع منع نفسي من احتضانه، وفي الآن نفسه تسارعت في ذاكرتي كل صنوف العقابات غير العادلة التي تعرضنا لها من قبله، كل أنواع الحرمان، كل العذابات النفسية بسبب غيابه حتى جسدياً وانشغاله بعمله وحكايات عمله ومغامراته الفاسقة.. ابتلعت كل ذلك كما لو كان فاكهة مرة، ربتت

على ظهره، منحته منديلاً ورقياً كان آخر ما تبقى لي من العلبة. تابعنا المسير منهيين حضننا المشروخ، ولجنا البوابة الكبيرة، لم يكن هناك أحد في باحة الاستقبال، طلبت منه أن يجلس، بينما اتجهت صوب شباك وحيد لم يكن خلفه أحد، انتظرنا لمدة لم تكن طويلة، ظهر شخص من الخارج، كان حارس الأمن:

- ماذا تريد؟

- نريد... أين موظف الاستقبال؟

- هل تريد إيداع والدك هنا؟

كانت عبارته قاسية توحي بالتخلي والعقوق، هذا هو الطبيعي، فقط لم أشعر بذلك تماماً. مهما يكن، كنا اتفقنا أنه لا يوجد حل آخر، ووالدي نفسه تقبل الأمر وأذكر أنها كانت فكرته، لم يرغب في تأجير بيت صغير، هل كان يخشى أن يصرف نقوداً إضافية من معاشه؟ لم أعرفه قتوراً على نفسه مثلما كان يفعل معنا.. في شبابه الملعون امتلك دراجة نارية، صرف الكثير من أجل مزاجه، جرب أنواعاً من الخمور الرخيصة والغالية، المخدرات والسجائر، أدى الكثير من المال من أجل المتعة الجنسية وإحضار العاهرات

المعروفات آنذاك في المدينة، القصيرة والطويلة، البدينة والرشيقة، القبيحة والجميلة... تذكرت الكثير حتى وجدتني أسأل نفسي، هل سأعاقبه بطريقة ما؟ مجرد التساؤل أشعرني بتأنيب الضمير، ما فعله، يتحمل هو مسؤوليته، حتى لو لم يسبق له أن قدم لأحدنا مبرراً أو اعتذاراً. أصبحت في مرحلة ما مؤمناً بأن الإنسان هو القدرة على التعالي المتواضع، شيء من الحكمة ممزوجة بجنون عاقل يفتح الباب للحياة لكي تقهر كل رغبات العنف والغضب القاتل، القيم السلبية، الانحدار الأخلاقي، الانحطاط بكافة تمظهراته..

- والدي يريد أن يقيم هنا..

لم أكد أتم عبارتي حتى أقبل رجل من ملامحه يبدو أنه في الخمسينيات، بشارب كث كثيف يغطي فمه بالكامل تقريباً، مد يده صافحني وأشار إلى والدي بالتحية، طلب مني الجلوس..

- أنت هنا من أجل العجوز؟

- نعم، يريد أن يلج الدار.

- هل هو والدك؟

- نعم، لدينا منزل واحد نقيم فيه، طلق والدتي ولا يريد أي حل سوى الالتحاق بدار العجزة..

لم يعقب الموظف، فتح درج مكتبه، أخرج بضعة أوراق طلب مني أن أملأها دون أن أنسى توقيعي وتوقيع أبي، أخذ منا بطاقتي تعريفنا من أجل نسخ لملف الاستقبال، سألته ما إذا كان ذلك كافٍ، أومأ بالإيجاب مغادراً.

- سأعود بعد قليل..

نظر إلي والدي نظرة لم يسبق أن جادت بها عيناه، كان فيهما نوع من الحب وكراهية الفراق وإن لتلك اللحظة، شعرت بحزن عميق، إنه والدي في النهاية، قد أكون أو نكون مخطئين جميعاً لأننا نولي اهتماماً أكبر دائماً لما هو سلبي في حين نهمل الإيجابي لاعتبارنا إياه شيئاً مفروغاً منه أو مفروضاً وجوده أو التصرف وفقه.. بادلته نفس النظرة هامساً: سأزورك حتماً، ولا تنسَ أننا في زمن لم تعد فيه مسافة ولا زمن.. أهاتفك، بل نجري مكالمة مصورة حتى.. ربما هذه مفارقة المشاعر الإنسانية، قبل غزو التقنية كنا أكثر اقتراباً من بعضنا حتى في السفر أو البعد بقلوبنا وأحاسيسنا، اليوم

ابتعدنا كثيراً ونحن أكثر قرباً من ذي قبل، تذكرت رسائلي إلى أصدقاء لي في الخارج، كان يفصل إرسال الرسالة عن تلقي الجواب أزمان يموت فيها أناس ويولد آخرون وتحدث أحداث وتنتهي وتبدأ أخرى.. إنه لأمر مقزز هذا التواصل المبتذل برغم كل ما يقدمه مما يبدو لنا إيجابياً وحاسماً..

فرح والدي بالهاتف الذكي، سلمني الآخر العادي، قال لي بأن أرميه في سلة المهملات عندما أغادر ضاحكاً.. شعرت بالسعادة لسعادته، وضع نظاراته مبتسماً ومركزاً على شاشة الهاتف المتطور، هذا واتساب؟ هل قمت بما يلزم ليشتغل؟ كنت فقط أومأ بالإيجاب وأنا أراقبه متلهفاً لاكتشاف ما يحتوي عليه هذا الشيء، في السابق لم يكن مهتماً بهذا العالم، زملاؤه في الدار أقنعوه بأهميته وجدواه خاصة في مكان كهذا يكاد يعزلهم عن الدنيا ويقصيهم من مواصلتها ككائنات تحيا بعد. لقد جرب بنفسه هاتف الحاج سعيد، وهو أحد النزلاء. ذلك الرجل لا ينفك يقهقه ويحكي نكتاً يستقيها من هاتفه، يكررها ناسياً أنه سبق وحكاها أكثر من مرة.. حيويته لافتة، في كل مرة كنت أزور فيها والدي يشرع في التقاط "سيلفيات" يقول لتوثيق اللحظات والاحتفاظ بها، كما لو كان يمسك بها فعلاً في أوج تناسلها وسيلانها صوب الماضي بسرعة خارقة، حكى لي مرة أنه لا يصدق كيف صار

كل هذا ممكناً وأنه يحمد الله لأنه عاش حتى فتح حساباً على الفايسبوك.. تذكر أبي شريحته، فصاح فيّ مازحاً: هات بطاقة الهاتف أيها الملعون ثم بعه إذا شئت حتى، يجب أن تبيعه لشخص خرج لتوه من السبعينات.. انخرطنا جميعاً في ضحك شبه مجنون.. أخبرته أن كل ما طلبه هناك بالقرب من سريره، كان مشغولاً بالهاتف الجديد، يركب بطاقته بسرعة لتشغيل الإنترنيت، لم ينتبه أبداً، وشوش: نعم، نعم.. رضي الله عنك.. حتى عندما سألته ماذا تريد في المرة المقبلة لم يبالِ، عانقته، همس في أذني: أنت أفضل مني بكثير.. في الردهة توقفت قليلاً، وددت لو عدت لأحضنه بشدة، ماذا لو مات قبل اللقاء القادم؟ ماذا لو مت أنا؟ لم أكن متأكداً من مشاعري، هل مازلت أكن له شيئاً من الكراهية؟ تحديداً كراهية أفعاله؟ أتممت المسير، توقفت عن التفكير قليلاً.. في السيارة شغلت أغنية فيروز: زوروني كل سنة مرة، في زمن التقنية يمكنك أن تسمع أي شيء حتى لو كانت معزوفة فلكلورية من البيرو أو جزر فيدجي.. لم أعرف تماماً لماذا شغلت تلك الأغنية؟ العلاقة ملتبسة، ابتسمت وأنا أقول لنفسي: العبرة بعموم الكلمات..

****

أمي كانت دائماً بمثابة صمام أمان لهذا البيت، منذ وعيت وأنا أراقبها وهي تكافح من أجلنا، في غياب والدي معنوياً وفعلياً بسبب عمله وأنانيته وحياته الخاصة، ربما لم يكن يفهم أنه أب، في هذه المجتمعات المريضة الزواج مثل شراء دمية وكراهيتها بعد انقضاء النزوة، الحاجة، تقليد الآخرين.. لقد فعلتِ المستحيل لكي تقدم لنا تربية مناسبة وتعليماً كافياً.. قدمت كل وقتها وأفنت جسدها حتى إنها شاخت قبل الوقت، ممثلات كن مراهقات قبل مولدها كأنها أمُّهُن الآن.. لم نعِ ذلك إلا عندما كبرنا واستطعنا أن نفهم حكاية هذا البيت الذي ظاهره الاستقرار، بينما كان باطنه هشاً، أخفت عنا تلك الهشاشة وعاشت غصتها وحيدة.. حتى عندما كنا نراها تبكي أحياناً، كنا نعتقد أنه بسبب شجار عادي مع والدي كما يحدث في كل البيوت.. أو أنها اشتاقت لوالدتها؛ جدتي.. كانت أمي طفلة، عندما رآها أبي، تركض في الزقاق وضفائرها تتطاير في الهواء، اختارها دون أن تختاره، لم تكن أصلاً تعرف ما الذي كان يجري عندما جاءت جدتي لأبي إلى منزلها لطلب يدها، المهم أن الأمر يتعلق بزواج وعرس وهو أمر كانت تقريباً كل الفتيات يتمنينه، وحتى لو لم تفعلن، ليس هناك مهرب من الزواج صوناً للفتاة واتقاءً للعار والبوار وكلام الجيران.. لقد تمنيت في غير

مرة صغيراً أن أحضر زفاف والدي ووالدتي، كانت تضحك ضحكاً فريداً عندما أخبرها بذلك، تربت على شعري وتخبرني أني كنت بعد في بطنها.. لم أكن أفهم كيف كنت في بطنها؟ وكيف خرجت إلى العالم؟ وكيف صرت هكذا؟ بعد تلك الليلة بأيام قليلة عاشت أمي جحيم الحماة من جهة وتسلط أبي وقسوته من جهة أخرى. كانت جدتي تراقب كل صغيرة وكبيرة، تأمرها بما يجب أن تفعل وما لا تفعل، بل حتى لباسها كانت تختاره لها، أما الصعود إلى السطح فكان محظوراً بغير وجودها، أن تطل من النافذة بمثابة جريمة قد تعرضها للطلاق.. طبعاً من المستحيل في تلك الفترة حتى مجرد التفكير في الطلاق، ذلك يعد من الكبائر التي أضافها مجتمع جامد إلى فهم كارثي للدين والقيم.. لقد صبرت، تفوقت على الصبر في نظري ونظر إخوتي. حتى عندما انتقلنا إلى العيش في منزل خاص، لم تسلم من زيارات جدتي التفتيشية البوليسية، وتصرفاتها الفجة بداعي أنه بيت ابنها، حتى أن أمي أخبرتني بأن جدتي كانت تأخذني منها عنوة ولا تعيدني إلا بعد مطالبة أمي لوالدي بإحضاري، غالباً كان ذلك يؤدي إلى ضربها وشتمها، مع ذلك كان أهم شيء هو أن يعود إليها ابنها.. إلى الآن أراني لم أقدم لها شيئاً لكي أعتذر بدل الجميع عما عاشته، بل عما ماتته وهي حية ترزق. حكت لي مرة أنها

كانت تحب شاباً قبل زواجها من أبي، كان أشقر، وسيماً للغاية، قالت بأنه صار مهندساً فيما روته إحدى صديقاتها القديمات، تزوج طبيبة متأخراً. لم تلج أمي مدرسة، في الستينات لم تكن جدتي لتسمح لها بالتعليم، أخوالي فقط ذهبوا إلى المدارس وفشلوا، قالت بأنها لو كانت تسجلت في المدرسة لصارت امرأة عظيمة، لتفوقت وحققت ما لم يفعله الذكران.. هي لا تدري أن العظمة هي ما قامت به رغم كل ما مرت به..

قررت أمي أخيراً، بعد سنين طويلة أن تتخلص من عقدة الطلاق..

- اسمعوا يا أبنائي.. لقد كبرتم. أنا لم أعد أتحمل، ولم يعد لدي ما أصبر من أجله على الإهانات المتكررة والمعاملة السيئة، بل أكثر.. اسمع يا عبد الجبار، طلقني..

في الحقيقة لم يعترض أحد، صمتنا جميعاً. أختي العاشقة توجهت إلى غرفتها. أخي الأوسط حنى رأسه وخرج، بقيت وحدي بينهما خشية أن يحدث عراك، رغم سنهما لم أستبعد أن يحدث شيء فظيع. بعد برهة نبس أبي:

- حسناً لك ذلك..

استغربت كيف وافق بسهولة ولم يشتمها أو يحاول على الأقل تهديدها، قال ما قاله واتجه صوب غرفة النوم، دخل وأقفل الباب من ورائه. أمسكت بيد أمي، قبلتها وأجلستها على مصطبة قديمة تشهد على كل ما عشناه في هذا البيت. لحظة غريبة ومريبة، لم يسبق لأمي أن كانت جريئة لهذه الدرجة، أن تصرخ في وجه أبي - وما أدراك ما أبي - هكذا، والأدهى ألا يصدر ردة فعل كما عهدناه.. قضينا أمسية صامتة، حتى لم نفكر في عشاء أو غيره، مرت طويلة، لم تنم أمي، عرفت ذلك رغم بعد غرفتي عن مكانها خارج غرفة النوم التي هجرتها منذ مدة يسيرة، سمعت تنهيداتها، لم تكن متألمة، بقدر ما كانت متعبة ومنطفئة.. لم أنسَ يوماً أنها كانت تبقي من المصروف البئيس الذي كان يمنحها إياه والدي بعد سخط ولغط واتهامات متكررة بالتبذير والسرقة بضع دريهمات لشراء ثياب لنا خلسة وألعاباً حين عاشوراء وكتباً وأدوات عوض التي تكسرت أو ضاعت، لم يكن بالإمكان إخبار والدي حتى بضرورة شراء دفتر جديد عقب انتهاء آخر، وكأن الدفتر بوريقاته المعدودة سيكفي للسنة كاملة أو ربما يبقى منه ما يكفي لربع السنة المقبلة.. لقد قاومتْ وصنعتْ حياتنا بأن ضحت مثل جندي شريف بحياتها الخاصة، لم تكن لديها أية حياة تذكر، هذا ما اكتشفناه متأخرين

جداً، هل ما تبقى منها كاف لإشعال جذوة بداية، آمنت في لحظات كثيرة أن الحياة الحقيقية هي المنعطفات، كما قال بطل أحد الأفلام الأمريكية: كل لحظة هي فرصة للانعطاف وعيش حياة جديدة نكتشفها لتوِّنا. لم تعش أمي حباً مؤلماً، ربما هذا أكثر سوءاً، لقد عاشت سجناً بدون أن تقترف جريمة سوى كونها أنثى في مجتمع لا أدري كم سيقتل من حياة وكم سيفني من أعمار حتى يشهق الحياة التي تليق بأفراده، يختارها اختياراً ويتحمل مسؤوليتها دون نوايا مسبقة تخزن مكراً سياسويا ضيقاً واستغلالاً دينياً بغيضاً ومدنساً باشتهاءات المنحرفين..

****

فتحت الباب، كانت ضياء متكئة تتفحص هاتفها، تمرر بأصبعها صفحاته الافتراضية العجيبة، مازالت بنفس السروال القصير والقميص ذي الكمين القصيرين، أمامها مائدة فارغة سوى من بقايا عنب، كانت تعشق العنب، لا أحد نافسها في ذلك، حتى أنها تلتهمه دون إزالة البذور، بل تستمتع بقضمها مصيبةً أخي الأوسط بالتوتر، أحبت ذلك لأنه حرص باستمرار على ممارسة الوصاية الذكورية عليها، ماذا يجب أن تلبس، متى تخرج، مع من تخرج، أين تذهب.. لم يكن يعير نصائحي له بالاستيقاظ من عقلية العربي البليد أيما اهتمام، بل وصفني مرات عدة بالديوث، تعاركنا بسبب ذلك، لاحقاً أصبحت أسبقه إلى وصف نفسي بذلك قبل أن يفعل مع ابتسامة كانت تزيده غيظاً وتعنتاً، يزيد من تهديده لضياء وتضييقه عليها.. اللعينة كانت تقصد إغضابه بافتعال أي شيء، كوضع أحمر الشفاه أو ادعاء الخروج مع أصدقاء ذكور..

- لقد زرتُ أبي..

- هل أحضر لك ما تأكله؟

- ألن ترافقيني يوماً لرؤيته؟

- لقد أقفلنا هذا الموضوع قبل أن يغادر البيت إلى دار العجزة..

- تزعمين أنك تحبين؟

- أنت تصر على خلط الأمور بشكل مضحك..

- حسناً، الحب ليس امتلاكاً، الحب يعلمنا كيف نتجاوز أي شيء من أجل غيرنا حتى لو لم يكونوا كما نحب.. فما بالك بأبيك؟

- لقد قلت لك بأنه حب مؤلم..

- أمامك الكثير لتتعلميه حتى تعرفي الحب.. المؤلم تحديداً..

لم أقصد أن أثير غضبها، خاصة أني أعلم كم هي عنيدة ومصرة على وعيها بكل شيء وأني لست مؤهلاً للحكم على أفكارها لأني أدعي الحكمة والتجربة فحسب، أو كما تسمي ذلك؛ رغبة مني في أن أبدو بمظهر الناصح والمصيب، العارف بحكم أني الأخ الأكبر، لم أستطع أن أفهم جيداً لم كانت تكره ذلك.. ربما لأني في كثير من الحالات كنت دائماً صاحب نظرة ثاقبة خاصة فيم يتعلق بقراراتها الحاسمة، دائما كانت تجد بأني كنت محقاً، لا تعترف بذلك طبعاً، أكثر ما تقوله: كان من الضروري أن أخوض التجربة

بنفسي، الخطأ سيعلمني أفضل من الأقوال والنصائح.. ماذا لو كان خطأ العمر؟ هل من المطلوب دائماً أن نعيش أية تجربة كيفما كانت دون أن نمارس تعقلاً ممكناً منفتحاً على ما يجري من حولنا والاستفادة منه دون تكراره بالضرورة؟ الغريب أني أنا نفسي عندما كنت أَقْدِمُ على اختيار ما أو اتخاذ قرار كنت أفقد تلك الحكمة التي ادعيت أني بفضلها أبصرت حقائق الأمور، ربما هذا يجعلني مخطئاً، لأن تجربة الشخص تجربة خاصة وما نراه نحن هو ما يناسبنا حتى لو كان اختياره وفعله خاطئاً في النهاية.. لا أحد يمكنه أن يرى ما يراه غيره وهو يعيشه حقاً بينما أنت تكون تدركه كشيء ملموس تدعي وضوحه لأنه بعيد عن داخلك.. لا يجعل أوراقك تلتبس، أو روحك تتوتر..

- مهما يكن، سيظل والدك وإن على الورق فقط..

- هذا لا يشعرني بشيء.. يا لبرودك، كم تنسى أي شيء..

مع أني كنت البكر، عشت ما لم تعشه، لا هي ولا رضا أخي الأوسط، لكنهما يرفضان التجاوز، أو لنقل لا يستطيعان أن يفصلا بين الأمور حتى لو كان ذلك ثقيلاً، كنت أشبه الأمر لهما بآية قرآنية مفادها ألا تأخذهما

العزة بالإثم، لم يفلح الأمر. كانت ضياء دائماً ترى أن السوء لا يقبل النسيان، لأنه يسبب جروحاً مريعة تأبى الشفاء، على الأقل بسبب كونها امرأة، والنساء ذاكرة، حتى أنهن كما تقول تذكرن الأحداث السيئة والخبيثة أضعاف الأشياء الجيدة والجميلة.. ماذا عن رضا؟ قالت لي بأن أيامنا كانت سيئة باستمرار ونحتاج جميعاً مثل ذلك العمر أو أكثر للنسيان واستئناف حياة مختلفة.

قلت: أنت حالة خاصة..

- الحالة الخاصة نموذج أو أسوة حتى لا أزعم بأنها أفق نسعى إليه..

- أو حالة شاذة لا يعتد بها..

- هذا تدليل يراد منه تبرير عدم القدرة على الانتصار على الشر الذي بداخلنا..

- فظيع.. هل واجهنا والدنا بنفس الطريقة؟

- تقول العرب، عذر أقبح من زلة.. المواجهة العنيفة ربما أسوأ من التجاهل والعقاب النفسي..

غادرت غاضبة، عيناها بدتا كشعلة نار، لم تستطع يوماً أن تسامحه حتى منذ أن مضى على مغادرته للبيت واستقراره في دار العجزة عدة أشهر، الحقيقة أنها كانت هكذا مع الجميع، هي لا تسامح بسهولة، والأدهى أنها كانت حتى إذا غفرت، لا تخجل من تذكير الآخرين بما اقترفوه بعدما نسوه هم نفسهم الذين فعلوه، هي لا تنسى أبداً.. لكنها لم تكن سيئة، لنقل إذا كان لكل واحد منا عيوب كبشر، فهذه كانت مشكلتها..

****

طرقت الباب، لم يجب أحد. ربما تكون أمي مشغولة أو تصلي.. أسندت دراجتي التي لم أعد أعيرها اهتماماً، انقضى ولهي وظهر عيبها أو بان بؤسها خاصة أمام دراجة الفتاة الشقراء ابنة أحد ممثلي مجلس المدينة الساكنة في أرقى الأحياء، حتى دراجة صديقي عزيز كانت أجمل.. إنه جشع ملتبس بحرمان محروم.. طال انتظاري، واصلت الطرق، متوقفاً بين الفينة والأخرى خجلاً من إثارة انتباه الجيران، كما لو كنت أطرق باباً غير باب بيتنا، عاهات نفسية تغلبنا عليها تدريجياً بصعوبة بالغة. لم تجب أمي.. فجأة سمعت نداء من جهة ما، التفت فإذا بها جارتنا أم الولد الذي طالما كرهته هكذا فقط لأنه كان مدللاً يملك كل ما كنت لا أستطيع حتى أن أحلم به، كان صوتها مرعباً، أمي كانت تقول بأنها طيبة رغم مظهرها الشرير، لهذا علمتنا ألا ننخدع أبداً بالمظاهر، كانت تقدم لنا أدلة غير مقنعة من أكلنا البئيس، انظروا إلى هذا العدس، لن تصدقوا بأنه يحتوي على الحديد، لهذا أنتم أقوياء جداً.. لم تكن أمي تعرف شيئاً عن فوائد فواكه البحر التي لم يسبق أن عرفناها سوى من مشاهدة التلفاز عندما حصلنا على واحد بالأبيض والأسود فقط لرغبة أبي في متابعة الأخبار..

- مبارك عليكم يا ابن عالية.. أمك ذهبت لكي تلد.. أخوك رضا معنا في البيت..

شعرت بإحساس فريد، خاصة وأنا واعٍ تماماً بأني الأكبر، سبق لأمي أن وضعت رضا ولكني كنت صغيراً. كان الأمر مختلفاً هذه المرة، عشت لحظات سريعة بين شبه صدمة وفرحة وتشتت ذهن.. حتى أني أخذت دراجتي من جديد..

- أين ستذهب؟ انتبه سألقي إليك بمفاتيح بيتكم..

هدأت قليلاً، اقتربت من نافذة جارتنا، تلقفت المفاتيح بحركة سريعة متخيلاً أني حارس مرمى كرة قدم بكل جنون مراهق، لا شيء غير الفرحة كان يملؤني لحظتها، فتحت الباب بسرعة، ركنت الدراجة تحت الدرج، هرعت إلى فراشي دون أن أفكر في الأكل أو في تشغيل التلفاز.. كنت أفكر في القادم الجديد وكيف سأكون مسؤولاً عنه بحكم أني صرت شاباً، سيكون بمقدوري أن أربيه وأعلمه، في الواقع لم أكن أفكر في مساعدة أمي بل في لعب دور الأخ الأكبر، تأكيد وجودي في البيت، لم يتأتَ لي ذلك مع

رضا، كنا متقاربين كثيراً، فكرت هل سيكون ولداً أيضاً؟ أم فتاة؟ كنت متحمساً لكي أعرف ماذا سأحس إذا صارت لدي أخت، فتاة صغيرة..؟

مضى زمن طويل وأنا أنتظر، فجأة قمت من مكاني، تذكرت أن أمي ستأتي متعبة غير قادرة على القيام بأدنى شيء، توجهت نحو مطبخنا الصغير، كنت معتاداً على المساعدة، أخبرتني أمي مراراً أني أمهر من فتاة في أعمال البيت، فعلاً لم أكن مثل بقية الفتيان، أقضي معظم الوقت أقوم بأعمال المنزل سواء طلبت أمي ذلك مني أم لا.. غسلت الأواني ورتبتها برفق في أمكنتها حيث علمتني، نظفت المغسل وما حوله، كنست الأرضية.. الغريب في الأمر أني كنت أقوم بمثل هذه الأمور بشغف ولكن من المستحيل أن أبوح بذلك لأحد، خاصة رفاق الدراسة.. إنه عمل النساء، شغل النساء، كما لو كان تنزل عليهم من فوق سبع سماوات تماماً كما صُنِعن إناث مختلفات عن الذكور بالطبيعة.. أسوأ الأفكار تلك التي ليست مجرد أفكار، بل معتقدات تتجاوز الإيمان إلى أسلوب التفكير والحياة، تصنع قرونا من الغرابة والشر والجهالة..

أتممت ترتيب غرفة النوم، ثم باقي البيت. عدت إلى ما كنت أسميه غرفتي، إثر إصرار كبير وافقت والدتي على أن أحصل على متر من شبه صالون بئيس،

بوضع الدولاب فيه وزحزته قليلاً ليفصل بين وَكْرِي وبقية الغرفة. كنت سعيداً للغاية يومها، حصلت على مكان شخصي حتى لو كان شبيها بسجن انفرادي في سجن خاص بمعتقلي السياسة، أول ما سارعت إليه كان لصق صور قصصتها من مجلات متنوعة كنت أخبئها تحت الأفرشة، صور ممثلين ولاعبي كرة قدم وممارسي رياضة كمال الأجسام وفتيات... السعادة أحياناً هي لحظة الحصول على حلم حتى لو كان تافهاً، الإمساك به بين يديك، الإحساس به، لا يهم ما سيأتي، نعي ذلك عندما تصير بيننا وبين تلك السعادة البسيطة مسافة عميقة..

بينما كنت متكئاً أتطلع في سقف وكري، سمعت طرقاً على الباب، لم يرتسم في ذهني سوى مقدم أمي، أسرعت لأفتح الباب.. أمي تسندها جارتان، بدت شاحبة وخافتة، قبلتها، ثم أخليت الردهة للنسوة حتى تُدْخلاها إلى غرفتها، لم ألبث أن تنبهت، أين الصغيرة؟ لماذا ستكون صغيرة وليس صغيراً آخر؟ قلت لنفسي مبتسماً بمكرٍ، حسناً لقد مللت من الذكور، اشتقت إلى أخت.. أقبلت امرأة ثالثة، لم تكن سوى جارة قديمة انتقلت من الحي، عرفت لاحقاً أنها التقت بأمي في دار الولادة بالمصادفة. كانت تحمل بين يديها مخلوقاً جديداً جاء إلى العالم هو أيضاً لكي يتحمل هذه

الحياة مثلنا إذا استطاع.. سارت المرأة في اتجاه غرفة النوم، تبعتها أحاول عبثاً التعرف على ما يكتنفه الغطاء.. نظرت إلي وهمست: تعال، انظر إليها.. إنها نائمة.. يمكنك تقبيلها بلطف. كدت أقفز صائحاً: يييييس[8] .. لكني تمالكت نفسي وغبطتي. أحنيت رأسي وقبل أن أقبلها هممت أتأملها، وجهها صغير للغاية، عيناها مغمضتان، تشبه ملاكاً نائماً، طبعاً كنا نعرف من مزيج بين دروس التربية الإسلامية والرسوم المتحركة أن الملائكة مخلوقات أو خيول هائلة عملاقة بأجنحة.. لكن كنا أيضاً نسمي الأطفال الصغار ملائكة، لأنهم لا يعرفون الأشياء السيئة بعد، ولا يقومون بأفعال الكبار الفظيعة، رغم الشيطنات الصغيرة المحبوبة.. قبلتها، كان ذلك فريداً، لدرجة خلتني سألتهمها بشفتي الضخمتين مقارنة بمحياها الضئيل. هذه ستكون ابنتي وابنة أمي، قررت بعمق أن أكون أباً لها.. ضياء. سميتها ضياء. طبعاً أبي لم يهتم كثيراً، الأسماء لا تهم. المهم أن يعوضوه في العمل عن مخلوقة تُضاف إلى قائمته ببضع دريهمات شهرياً.. أمي فرحت بالاسم، ضحكت وقالت: هي ضياء، ليكن لك ما اخترت أيها الرجل العاقل..

****

[8] نعم بالانجليزية Yes

رضا، آه من رضا.. لم يكن يرضيه شيء أبداً، أمي تسميه "العكس[9]"، هاجمنا مراراً بسبب تكرارنا للقب الذي منحته إياه أمي مزاحاً طبعاً، فقد كان مدللاً للغاية، منذ صغره يأخذ كل أمر بجدية بلهاء تفوق سذاجة الصغار في سنه.. لطالما قضى أياماً يبكي ويتباكى من أجل حصان، كنا نضحك وهو يضربنا أنا وأمي بشدة، يصرخ: ستحضرون لي الحصان وإلا أقتلكم جميعاً.. خشينا دائماً أن يتصرف تصرفاً خطيراً، لذلك راقبناه جميعاً قدر ما استطعنا.. مرة كان في حوالي الرابعة عشرة من عمره قام بتجربة كادت تودي بحياته، أخذ مجموعة من محاليل النظافة وطفق يمزج بينها وقام بتسخينها باستعمال ولاعة، لم ندرِ إلا وقد هرعنا نبحث عن مصدر الانفجار.. احترق شعر مقدمة رأسه، علا دخان أسود وجهه، بدت أمي حائرة بين هلعها من أجل سلامته ومنظره المستفز المضحك.. رضا لم يكن قريباً مني كثيراً، ربما بسبب فارق السن مع أننا كنا متقاربين نسبياً، فقد أنجبته أمي بعدي بست سنين. عندما صار مراهقاً لم يشركني أبداً في همومه وأحلامه وأفكاره وأشيائه.. حتى عندما كنا نلعب، ما كنت أشعر بتلك الحميمية والتواطؤ خاصة عندما نقترف أموراً مرفوضة في البيت دون علم أمي.. في

[9] في الدارجة المغربية لفظة عكس تدل على العناد والمشاكسة

معظم الأوقات كان يلهو لوحده منعزلاً، يخاصمني باستمرار. في هذه لم يختلف عن ضياء، من المستحيل أن يقبل نصحي له أو رأيي في شيء يخصه منذ الصغر. مع ذلك، كانت أخوتنا قوية. آمنت دائماً أن قوة العلاقة تظهر في الشدة والكروب والأمور الطارئة.. عندما كنت أمرض، لا يدخر جهداً مهما كان بسيطاً أو تافهاً لكي أعود إلى التعافي، حتى تنشب المعارك الصغيرة مجدداً. كلما أصابته وعكة، خشيت بفزع أن يموت، لا أدري لم كنت أقرن الموت بالمرض والحوادث.. مع أن الموت لا يعرف قاعدة.. المهم، كنت أفحص نبضه خلسة حتى لا أخيف أمي، أقرب أذني من أنفه وفمه حتى أشعر بتنفسه.. تلك اللحظات صنعت كل شيء رغم الشروخ المتعددة.. أبي كعادته، كان يكتفي بقوله كلما زارنا بعد عمله - أقول زارنا لأنه حقاً كان يغيب إلى درجة لا يشكل رجوعه إلى البيت سوى زيارة طارئة..- هذه أمراض عابرة، سينهض ويعود ليقفز هنا وهناك، ليزعجنا مجدداً.. لم يسبق حتى أن أحضر لأحدنا دواء أو أخذنا إلى مستشفى أو حتى طبيب الحي المجاني.. رضا عندما كان يتذكر ذلك منذ صغره، يصرخ بغضب متوعداً أبي بعقاب لا يوصف عندما يكبر. شعرت بأن قسوته وغلظته، تعامله العنيف مع ضياء، لا يرجع ذلك إلى عقلية العربي عموماً فقط، بل إلى

افتقاد الأب، خاصة أن والدي فعلاً خذله في غير ما مرة، وعود كاذبة، لا مبالاة، غياب.. في الحقيقة لم يسبق أن صرح بذلك حتى عندما صار شاباً.. لكني استوعبت الأمر من خلال كلامه المر كلما تحدثنا عن أبي وتذكرنا طفولتنا.. قال مرة ببشاعة محزنة: لولا أن الله شدد في أمرنا ببر الوالدين، لكان لي معه شأن آخر.. بصراحة، خفت فعلاً أن يقترف شيئاً مما نسمع به من حوادث بين الأبناء والوالدين في زمننا المنحط.. خاصة مع وعيده المتكرر. لا يمكن أن أنسى أنه في مرة لم يسمح له بضربه، أمسك بوالدي بين ذراعيه بقوة، لم ينبس ببنت شفة، بينما والدي كأنه أصيب بصدمة.. تدخلت، فتركه رضا. انصرف والدي ينهج ويتلعثم، مستشيطاً غضباً.. ليعود بعض قليل، صرخ في والدتي: لم أعد أريد هذا العاق في بيتي.. لم تجبه. آه من رضا. لم يصرح لأحد بعد بألم الحب بعد أمنية الحصان.. لم يبد عليه أي أثر لتورط أو حتى علاقة إعجاب عابرة.. رغم أني أكبره بسنوات، لم أجرؤ على سؤاله عن ذلك إلا مزاحاً.. كان يعشق نفسه، ضياء لا تنفك تخبره بذلك وجهاً لوجه، كم تحب معاندته. ربما اختار القسوة والعجرفة كبديل عن الحب لعلاج الخلل الذي عشناه. أحياناً كنت أؤمن بأننا أفضل من كثيرين، أفضل من أطفال إفريقيا الذين فكروا في كسرة خبز أكثر من أي

شيء آخر.. طبعاً رضا لم يكن ليقبل مناقشة أمر زيارته لأبيه في دار العجزة.. لم تأتِ أية فرصة مواتية، ما كنت مستعداً لإرضاء رغبتي مهما كانت النية حسنة مقابل احتمال فشل قد يقضي على كل محاولة.. أحياناً لا مجال لإنارة مكان يرى أصحابه أن الظلمة تجعله أفضل وأكمل..

حتى الحديث عن وجوب البحث عن عمل لم أخضه معه سوى مرة واحدة فيم أذكر، حضرتُ من قبل مشادات كلامية بينه وبين أمي بسبب مطالبتها له بالبحث عن العمل، لكن دون جدوى.. لم يتوقف أبداً عن لوم والدي لأنه لم يقدم له شيئاً حتى يكون أهلاً لإيجاد وظيفة مناسبة. رفض باستمرار أن يشتغل شيئاً بسيطاً أو نوفر له بعض النقود لكي يبادر بمشروع صغير خاص، ريثما تأتيه فرصة مناسبة لدبلومه... كأننا كنا نصب الماء في الرمل كما يقال..

آه من رضا.. لكنه كان وسيظل أخي.. سأحبه. الحب ممكن، أنا لست حكيماً مبتذلاً.. أنا أحاول أن أصنع حياة قابلة للوجود..

****

- الحب هو ما اكتشفناه لترميم جراحنا. قالت ضياء.

- ولكنه يؤلمك الآن.. كدت أضحك

- صدقني، هو جرح مختلف يجمع بمفارقة "بنت الكلب" بين الألم واللذة..

- إيييه، صرت فيلسوفة..

- هل ذلك صعب أم مستحيل.. تهكمَّتْ ضاحكة.

لم أكن أعرف شيئاً عن الحب، أتحدث عن الحب، حب صديقي عزيز للشقراء صاحبة الدراجة الغالية الثمن. كنت أجد خوفه من مجرد رؤيتها، خِشْيتُه أن يتوقف قلبه عن النبض لو صادفها أمامه بغتة كما يقول، مجرد أحاسيس تافهة فارغة.. تحديداً، لم أكن أعرفها كأحاسيس، بل كمزيج من التفاهة وصداع الرأس مع قلة الحياء، حتى إعجابي بالفتيات، كنت أراه شيئاً خبيثاً، محرماً.. عشنا صراعاً منافقاً بين رغباتنا التي لم تجد من يهذبها ويرقى بها وبين قيم لا ترى نفسها إلا وجها للحرام والتحريم أحياناً دون أن يرتبط ذلك فعلاً بالتزام بالدين.. عزيز في نظري، اختار طريقاً فاسداً محفوفاً بتضييع دروسه والانهماك في تمجيد أنثى وجعلها محور وجوده.. عقلية عربي ببساطة كانت تحركني، مع أن أمي امرأة، كانت خارج المعادلة دون أي منطق، هذا هو التفكير المنفعل.. ربما لم يتغير ما يجب أن يتغير

حقاً عندما خضت نفس تجربة عزيز- طبعاً لم أقع في حب الشقراء معه - لكني تحولت فجأة إلى شخص آخر، عذرت عزيز بعد لوم عظيم وعتاب كبير.. قال لي مرة: شربت من الكأس.. تنهدت: يبدو أني أتيت على البرميل.. ضحكنا يومها دون أن يغادرنا ألم الحب، الأول.. مع اللذة العجيبة طبعاً.. حفظنا أبياتاً لقيس، صَيَّرْناه علينا ملكاً وقدوة، باسم جميع العشاق والمغرمين.. مع أنها – الحبيبة - لم تكن جميلة كما ردد عبد الواحد، لم يكن صديقاً مقرباً مثل عزيز، غير أنه كان يشاركنا الطريق من المدرسة إلى البيت، بحكم الانتماء إلى الحيّ البئيس نفسه. شككت أنه ربما يحبها أيضاً، يقول ذلك لكي يبعدني عن طريق مخططه الغرامي، هيهات. بدأت قصة جديدة فريدة، لم يعد أساتذتي يجدونني من فرط الشرود، الدرس في وادٍ وأنا هائم في درب المحبوبة، بيني وبينها صفان من التلاميذ والتلميذات، فكرت في مساومة الكثيرين حتى أقترب منها، أمنحهم أدوات مدرسية أو مجلات، أو حتى أغششهم في الاختبارات، رغم أني لم أعد أبالي بالدراسة إلى حد كبير. لم أعد أتذكر كيف حدث ذلك، تسلل شيء ما غير مرئي إلى داخلي، استوطن هذا القلب المسكين، إنه النبض الذي وصفه عزيز حد الملل ولم يمل.. كل ما لا نشعر به نحن لا يساوي شيئاً لنا، هل هي

أنانية؟ أم طبيعة بشرية؟ أم هي لعنة عقلية جاهلة لا ذوق لها ولا مشاركة؟

الحب مؤلم، هل هو مؤلم للجميع؟ لم يعيش سعيد زميلنا قصة حب سعيدة؟ لم قدر علينا أنا وعزيز أن نحب في صمت، مع أني كنت أجده أكثر وسامة مني وله حظوظ كبيرة في أن تقبل الشقراء به وبمشاعره، مهما قلت له لم يستطع أن يبوح بشيء. ريحانة كانت جميلة في نظري أو كما حكم قلبي اللعين، أنيقة ودائمة التألق، هذا ما كنت أراه ولا أبالي بغيره. كانت من بين الفتيات القليلات اللواتي تضعن مكياجاً خفيفاً ساحراً. لم أجرؤ يوماً على البوح لها بما يسكنني من هوى وعشق، كتبت عشرات القصائد، أخفيتها بين كتبي في زنزانتي خلف الصوان في بيتنا. الرسائل أيضاً دونتها بنبضي وقرأتها بيني وبين نفسي مراراً، حلمت بأني أرسلتها إليها فجاءت إلي في الصباح مسرعة مصرحة بأنها تبادلني نفس تلك الأحاسيس الهائجة.. ألح علي عزيز لكي أعقد اتفاقا مع إحدى التلميذات حتى تضع لها رسالة من رسائلي وسط كتابها إذا لم أكن مستعداً لمصارحتها أو إعطائها الرسالة شخصياً أو حتى قصيدة تفهم منها أني أحبها. لم أفعل أبداً.. كنا نخطط الخطط ولا ننفذ أي شيء، لم نملك أية جرأة. كان حبنا الأول.. لم نقتنع

بأنها مجرد مراهقة كما أخبرنا أحد أبناء الحي المجربين، كان طالباً جامعياً، حدثنا عن تجاربه، سمعنا بشغف وحسد.. عرف فتيات كثيرات، أرانا صور طالبات فاتنات كان على علاقة بهن..

كنا عندما تنتهي حصصنا نسرع إلى دراجتينا، المشكلة أن حبيبته الشقراء كانت تسكن في الاتجاه المعاكس لحبيبتي ريحانة ذات العيون السوداء الجارحة.. مع ذلك كنا ننجز المهمتين بفضل طاقة الحب كما كان يسميها عزيز. نسير خلف الشقراء إلى أن تصل إلى بيتها، فيودعها مثل مهر أليف دون أن تنتبه، ثم نقود الدراجتين بأقصى سرعة ممكنة غير آبهين بالطريق وأخطارها إلى أن نجد ريحانة في الطريق، لحسن الحظ لم تكن تملك دراجة. نسير خلفها ببطء، فؤادي يخفق مع خطواتها، أحدث عزيز بأني أغار من التراب والإسفلت عليها، هو الوحيد الذي من الممكن أن يشعر بي، نعيش نفس الألم العجيب، يتعبنا، يقتلنا، يحيينا، يفعمنا بغبطة لم نعهد لها مثالاً..

كان ذلك الحب شفاء لجراح كثيرة.. كان جرحاً مداوياً بغرابة.

- أمي.. لدي شيء أريد أن أخبرك به.

- هل هو سر..

ضحكت باستحياء، لقد كانت أمي تحب أن نخبرها بأشيائنا الصغيرة التي كنا نسميها أسراراً، نحكي لها بفخر، ببساطة لأن من نعرف من الأطفال كانوا لا يجرؤون على أن يقولوا أي شيء تقريباً من مشاغباتهم ومغامراتهم وأسرارهم لأمهاتهم، عزيز نفسه قال لي بأنه إذا أخبر أمه بمشاعره تجاه الشقراء فقد تخبر أباه الذي سيريه الحب والغرام عندما يغلق عليه الغرفة وفي يده حزام بنطاله. مع أمي الأمر مختلف. إنها مستودع أسرارنا وهمومنا، تصرفت دائماً بحكمة وهدوء حتى لو كنا اقترفنا أشياء مرفوضة تماماً.

- أحب فتاة معي في الفصل.

- هل هي جميلة؟

- جداً..

كنت أتحدث باقتصاد وخجل، إنها أول مرة أقع في هذا المسمى حباً، والحب لدينا موضوع حساس للغاية، الحب قلة حياء، جريمة.. أمي فقط كانت

تخفف من تلك المعاني القاتلة ولكن بعفوية لم تسمح بهدم كل ذلك الجبل الهائل من الغباء الذي يسكننا لا شعورياً..

- حسناً، ليس عيباً أن تحب.. ولكن الآن يجب أن تنتبها إلى دراستكما حتى تكبرا قليلاً وتتخرجا، وعندما تجد عملاً، من يدري؟ إذا كنت تحبها بعد، نخطبها..

كان كلام أمي بمثابة بلسم مزج ألم الحب بالأمل ليصنع سعادة متعقلة أو مدعية التعقل والاتزان. اكتشفت فيما بعد أنها كانت تسايرني حتى لا أضيع دراستي.. لكن حينها بدأت أرى في ريحانة زوجة المستقبل، أتصرف كزوج دون أن يعلم شيئاً عن ذلك سوى عزيز، أصبحت أقول له: هل سنتبع "مراتك[10]" أم "مراتي أولاً".. ونضحك بسرور وجدية بليدة.

****

[10] زوجتي بالدارجة.

ترجلت من الناقلة قادماً من البلدة حيث الجامعة، أحمل حقيبة ظهر كانت اشترتها لي أمي من باعة البضائع المستعملة المهربة من إسبانيا بما ادخرته دون علم أبي، لم تكن تحوي سوى ثيابي المتسخة ودفتراً كبيراً وكتابين.. أبي لم يكن متفقاً مع خيار الجامعة، بالنسبة له لو كنت بحثت عن عمل حتى أساعده بالمال أفضل من المزيد من تضييع الدراهم على الدراسة الجامعية التي تليها البطالة. في طريقي إلى البيت التقيت عبد الواحد، صدفة أقرب إلى لقاء مدبر في مدينة صغيرة كمدينتنا، سلمنا على بعضنا وتعانقنا..

- سمعت من عزيز أنك تسجلت في الجامعة؟ لماذا لم تجتز مباراة بشهادة البكالوريا، لقد نلت معدلاً مشرفاً، كنت لتقبل في مباراة المدرسين..

لم أرد مجادلته كثيراً، إنه مثل الجميع يعتقدون أن الجامعة بلا أية قيمة، الذين يتجهون إليها غالباً يتخذونها ملجأ أخيراً لأنهم لم يحصلوا على معدلات كافية لولوج معاهد عالية يحلم بولوجها الجميع وأيضاً لإيمانهم البليد بفشلهم الأكيد في مباريات التوظيف، الجامعة مكان لمراوغة البطالة وممارسة الحرية، يسمون الفوضى حرية.. ببساطة لأننا جميعاً لم نتعلم الحرية بقدر ما عشنا الحرمان المركب، مادياً ومعنوياً وقيمةً...

- ربما أجتاز مباراة ما لاحقاً.. اكتشاف الكلية ليس سيئاً أيضاً..

ودعت صديقي – لم يكن مثل عزيز ولكن كان زميلاً مقرباً - بعد أن تواعدنا على اللقاء مجدداً ما دمتُ في المدينة، اتجهت إلى البيت مسرعاً، أتخيل وجه أمي فرحاً بلقائي بعد فترة غياب ليست طويلة ولكني لم أعتد أن أفترق عنها وعن إخوتي هكذا.. قطعت ما تبقى من المسافة متحمساً، لما اقتربت عرجت على الدكان القريب من بيتنا، اشتريت بعض الحلويات الرخيصة التي يسمح بها جيبي شبه المفلس من أجل ضياء ورضا. وجدت باب البيت مواربا، هي فرصة لكي أفاجئ الجميع، تسللت بهدوء. لم يكن هناك أحد في البهو، ولا في المطبخ.. أخيراً وجدت ضياء تلهو وسط الغرفة الصغيرة الوحيدة التي نملك غير غرفة النوم، كنت اتخذت من جزء منها زنزانتي.. احتضنت ضياء بقوة وقبلتها بحرارة في كل جزء من وجهها الصغير، كانت تقريباً في الثالثة. سألتها عن أمي فأشارت إلي بكلماتها الملتبسة بأنها نائمة في غرفة النوم. أما رضا فيبدو أنه في الخارج يلعب مع أقرانه، كان معتاداً على ذلك. حملت ضياء بين ذراعي وتوجهت حيث أمي، ولما كانت الغرفة مظلمة حتى في النهار لأن لا نافذة لها على الخارج، أضأت مصباحها.. أمي مستيقظة، أرادت أن تنهض لتعانقني غير أنها بدت منهكة، انتبهت إلى

أثر كدمات على وجهها، زرقة واضحة. فهمت أن والدي قام مجدداً بضربها. إحساس غريب.. أن تشعر بالغضب من أجل والدتك مع العجز عن أيما انتقام لأن الظالم والدك.. اكتفيت بالارتماء في حضنها والدمع محتبس في مآقيّ. لا أنسى أنها تعرضت لهذا مرات عدة، مذ كنت صغيراً شهدت مشادات بينهما انتهت في الغالب بضرب والدي لها، أصمت في ركن ما وأبكي، المرة الوحيدة التي صرخت فيها وواجهت أبي: كفى.. كفى.. سأقتلك.. ضمني إلى والدتي وأشبعنا ركلاً ورفساً.. بعدها صرت أصرخ بداخلي، أنتحب دون أن أصدر صوتاً..

كعادتها، تحاملت أمي على نفسها، أقنعتني أنها بخير، ربتت على كتفي وقامت إلى المطبخ..

- ضياء اشتاقت إليك.. اشبع منها. سأحَضِّر لك وجبتك المفضلة..

لا أدري هل اللحظات نعمة لأنها تنقلنا من ردهات حرجة وأوجاع وأزمات وآلام إلى فسح نسيان ومتع وإن كانت صغيرة أم نقمة لأنها تظهرنا ككائنات هامشية لا قدرة لها على التحمل أو الاستهزاء بالفرح.. سرعان ما تلهفت إلى طبقي قبل أن تشرع أمي في طبخه، خاصة أني جئت جائعاً جوعاً

مزمناً من فرط وجبات مطعم الجامعة الشبيهة بأكل السجون، لا أعرف كيف هو طعام السجن ولكن الجميع يستشهدون بكونه أسوأ طعام..

- آه، كم اشتقت إلى هذه الرائحة..

- هل اشتقت إلى الرائحة أم إلى طعام والدتك؟

الأمر لدي سيان، ما أشتهيه لا يروق لي إلا من يدي أمي، المحارِبة التي تمارس أدوار جميع فئات الجنود في معركة هذه الأسرة البسيطة القوية بحضورها فقط، بفضل وجودها..

تحدثنا طويلاً عن الأيام التي مضت دون أن أكون موجوداً في البيت، أخبرتها بالتفاصيل عن كل شيء منذ غادرت إلى ليلة العطلة وفرحتي باللقاء، حتى أني بت شبه مستيقظ منتظراً طلوع الشمس، كانت لدي حصة صباحاً وبعدها كدت أركض صوب المحطة الطرقية حتى أستقل الناقلة المتوجهة إلى وطني، رغم كل شيء، كانت تلك المدينة الصغيرة المهمشة وطني، كانت فيها أمي، ضياء، رضا.. كان فيها والدي. كنت أحلم كثيراً بأن يتغير ويصير مثل آباء بعض أصدقائي، كلما تذكرت كيف كانوا يعاملونهم، شعرت بحسد عميق وحقد مريض.. حتى أننا جميعاً اشتهينا أباً

على مقاس أمنياتنا الصغيرة، المستحيلة. رسمناه، تخيلناه يحكي لنا حكايات ولم نمانع أن تكون مملة أو حتى مرعبة.. أنجزنا تمثيليات وقمت بشخصية الوالد فجسدت ما رغبنا فيه بشدة بكل ما أوتيت من أمل وانتقاماً من الحرمان الدفين..

لم يأت تلك الليلة. قالت أمي بأنه ربما لديه مداومة أو انتقل إلى مدينة أخرى من أجل عمله.. كنا معتادين على ذلك. بل حتى عندما يأتي، فإنه يدخل إلى البيت متأخراً، نكون نحلم بأبينا الذي في خيالنا.. على أية حال لم أكن أريد رؤيته في تلك الليلة بعد الحالة التي وجدت عليها أمي..

****

في الصباح، استيقظت على رائحة "الحرشة[11]" القوية المستفزة لشهوة تتجاوز لذة الطعام إلى حنين رائق وشوق ماتع. إنها اختصاص أمي، تحضرها بشكل تقليدي في سطح البيت وتطهوها على نار هادئة تشعلها باستعمال بقايا أعواد البناء التي يجمعها رضا ويحضرها من أجل ذلك.. كان ذلك مثل حلم، تذكرت محمود درويش بصوت مارسيل ودندنات عوده المقاوم، غنيت محاكياً بانزياح مشروع في داخلي: أحن إلى "حرشة" أمي وشاي أمي.. وأريد أن أبقى طفلاً، طفلها الصغير دائماً.. نمت بهدوء بعد أيام متوترة لم أعتد فيها بعد على الحي الجامعي واستفقت مرتاحاً فرحاً. إنه صباح متميز، في بيتي بين أحضان أمي وسط أخي وأختي. جاءت إليّ ضياء تتهادى مثل باندا صغيرة. استقبلتها بعناق حار وقبلات كثيفة. لاعبتها وحاولت مساعدتها على نطق: أخي.. حملتها بين ذراعي وأسرعت إلى الدرج، صعدت إلى سطح البيت، كانت أمي هناك بالكاد تظهر من خلف دخان الأعواد وهي تحاول تقليب "الحرشة" وطهيها من جميع الجوانب لتصبح جاهزة كما اعتدنا في السابق، إنها معاناة حقيقية لم نشعر بها، أو اعتبرنا ذلك شيئاً عادياً تقوم به الأمهات.. ربما عندما غادرت البيت عشت حالة الفقد التي أيقظت فيّ

[11] أكلة مغربية تنجز من السميد على هيئة خبز غير سميك.

تقدير الأمور والأشياء والأشخاص، بل تبجيل أمي وما تقوم به حتى لو بدا بسيطاً ساذجاً.. إنها تقدم لنا وجوداً ما، نجهله ولكنه يلتئم ويصنعنا باستمرار مثل أجزاء تافهة للعبة ما، لا يظهر شكلها المفاجئ القيِّم إلا عندما يكتمل التركيب..

أفطرنا ونحن نتحدث ونضحك، كان رضا يتساءل: متى سيكبر بدوره لكي يغادر المدينة، ليدرس ويصير طياراً.

- هل أنت في عجلة من أمرك؟

- نعم، أريد أن أحلق في السماء، خاصة في سماء مدينتنا ليراني الجميع..

- ومن سيطبخ لك "الحرشة"؟

- سآخذها معي، أو تذهب أمي معي..

ضحكنا جميعا، ضياء أيضا رغم أنها لم تكن تعي بعد ما يجري من حولها. بالكاد تعلمت ماما وبابا.. تقول أمي أنها تأخرت في الكلام خاصة وأنها فتاة.. الفتيات يثرثرن قبل الذكور حسب تجربتها..

قبلت يد أمي ولم أكن أفعل من قبل، لم نعتد على ذلك ولكن الفترة التي قضيتها بعيدا عنها جعلتني أحلم بأن أقبل يدها، كما لو كنت أستدرك شيئاً فاتني، أقدم شيئاً بسيطاً جداً مقابل ما فعلته وتفعله من أجلنا جميعاً، ربما ليس شيئاً ليقدم، فقط حباً يعلن عن نفسه بطرق عهدناها في مجتمعنا أو حتى لدى الآخرين المختلفين عن ثقافتنا.. في كل لحظة رجوت أن أنهي دراستي لكي أحقق ذاتي وأجد عملاً جيداً، سيساعدني ذلك على تقديم شيء ما لوالدتي، أرسلها إلى الحج إن شاءت، أبتاع لها الذهب الذي لم تعرف منه سوى قرطين دقيقين من زمن زواجها، أما الخاتم فكانت باعته عندما تم إيقاف أبي عن العمل بسبب تهوره وحمقه، ضرب مديره مما تسبب له في عقوبة أتذكر أننا عانينا من جرائها ويلات وعذاباً سواء بسبب الحاجة أو بسبب غضبه وجنونه بعد ما حدث، كأنه كان ينتقم منا ولم نكن حتى نفقه ما كان يجري.. حلمت دائماً بأن أهدي لها أي شيء وكل شيء مع إيماني بأن لا شيء سيكفي.. المهم أن أحاول رغم ألم المفارقة؛ ألّا تستطيع تقديم مقابل، حسناً ليس رغبة في التخلص من دين، إنها أمي.. فقط حرصاً على امتنان عظيم يليق بعظمة على الأقل معجزة الحمل والولادة.. عبثاً سأحاول.. ستظل الأم أسطورة تعز ملامسة أثرها الفريد..

غادرت المنزل، مؤكداً لأمي بأني لن أتأخر تلبية لطلبها في العودة مبكراً وقبل موعد الغداء. مع أني لم أكن متيقناً من ذلك تماماً، فقد كنت عازماً على زيارة عزيز، هو أيضاً لم أره منذ مغادرتي إلى الجامعة. التقيت في الطريق إليه بكثيرين ممن كانوا زملائي في المدرسة الابتدائية والإعدادية والثانوية، إنها حقاً مدينة شبيهة بقطعة تركيب وحيدة يتيمة في يد مارد صغير، من الصعب أن تعتقد أن لقاء شخص فيها محض صدفة ولو أقنعت نفسك بذلك، اكتفيت بمصافحات باردة أو تحيات عن بعد، لم يكن لدي أصدقاء كثر أو اهتمام كبير برفاق الدراسة، عزيز وحده تقريباً كان مقرباً جداً إليّ، أحببنا معاً، أحسسنا بمشاعر مماثلة في فترة ما، تشاركنا المقعد في الفصل والطريق وجولات الدراجة، لم يكن يفهم بعض أفكاري ولكنه ظل على الدوام يثني على ما اعتبره عبقرية فيّ، الأجمل أنه لم يكن يعتبر تلك العبقرية المزعومة سبباً لصداقتنا ومنفعة له خاصة في الامتحانات.. ربما لهذا فيما بعد لم أستطع إلا أن أحافظ على هذه الصداقة الشبيهة بأحلام أرسطو، الفضيلة.. مع أن عزيز كان يتصرف في غالب الأحيان بغباء أكرهه، لكني كرهت غباءه فحسب. أما هو فصديقي.. تأكدت بشدة من ذلك عندما أطل عزيز من النافذة ليجدني في الأسفل مبتسماً.

- ألن تفتح الباب يا عاشق الشقراء؟

ضحك متهللاً وقد هرع لكي يلتقي بصديقه القديم الحميم، ما إن فتح باب الدار حتى ارتمينا في حضن بعضنا البعض، كان عناقاً حقيقياً ممتعاً ودافئاً، تبادلنا عبارات السؤال عن الأحوال والأوضاع ونحن شبه ملتصقين، حتى عندما أنهينا العناق ظلت يده ممسكة بيدي، لم يكن قد مضى وقت طويل على فراقنا، فقط لم نعتد على ذلك، خاصة وأن صداقتنا دامت طويلاً، تقريباً منذ الابتدائي. دعاني إلى الصعود ولكني طلبت منه أن نتمشى قليلاً، نتذكر الأزقة التي لطالما سرنا عبرها سواء على أقدامنا أو راكبين دراجتينا، والشارعين الوحيدين المعروفين في المدينة حيث كنا نتجول، نحدق في الدكاكين نفسها، مشاغبيْن الباعة المتجولين ذاتهم.. المهم أنها كانت لحظة نوستالجيا شائقة بغض النظر عن كل ذلك. شزرني عزيز بمكر ونحن نلج الزقاق حيث كانت تقطن ريحانة..

- ما زلت تحبها؟

- ماذا عن الشقراء؟

- هل أنت مجنون..

- وهل أنت عاقل؟

ضحكنا ونحن نعيد سرد ما كان من مراهقتنا الجميلة البليدة في آن، كلما جاوزنا مرحلة من عمرنا، نصير كأننا شخصان يشمئز ابن الحاضر منهما من ابن الماضي وابن المستقبل يقهقه باستمرار.. أخبرني أنها تزوجت من أستاذ كان يدرسنا، كما أن حبيبته الشقراء رحلت إلى أوروبا لمتابعة دراستها، ولكنها سرعان ما التقت بشخص هناك تزوجته ولم تعد أبدًا خوفاً من والدها. كل شيء يتغير مع الزمن، لا نشعر بذلك إلا في محطات معينة، عندما نقف على مسافة من الماضي نتأمله، متحسرين على ما كان رائعاً فيه، غير نادمين على ما عانينا منه، على آلامنا وذكرياتنا الموجعة..

تذكرت وعدي لأمي بالعودة المبكرة إلى البيت، وكنت أصلاً تأخرت. تواعدنا على اللقاء مجدداً طيلة العطلة، كان عزيز أيضاً في عطلة رغم أنه ارتاد جامعة في مدينة أخرى بسبب اختلاف التخصص الذي اختاره كل منا. لم نكن نتواصل كثيراً، لم يكن هناك هواتف ذكية بعد، أو لنقل بأن أوائل الهواتف النقالة غير الذكية كانت باهظة الثمن بعد. لم يكن هناك سوى الرسائل.. تلك الرسائل التي أصبحت مثل حيوان منقرض..

- لقد بعث إلي برسالة.. هل تصدق ذلك؟

- لم يعد حباً مؤلماً anymore[12]؟

- لا تفرح كثيراً.. إنها رسالة على الواتساب يطلب فيها مني إعارته دروسا فاتته، كان مريضاً.. لقد قلت لك بأنه لم يحضر عدة حصص..

- كان بإمكانه أن يطلب ذلك من أي كان..

- لا تنس أني معروفة بعدم تفويتي لأية حصة مهما كلفني ذلك وخطي مَضْرب مثل..

- هل تستبعدين ما تريدينه درءاً لعين عائن أو حسد حاسد أم تحتاطين لقلبك؟ لا تريدينه أن يبني أملاً من رمل؟

- هل تعتقد ذلك؟

اختلط في وجهها فرح متوجس وخوف فَرِح.. حقاً إنه إحساس جهنمي، أن ترغب في تأويل فعل لشخص تحبه ولا تعرف هل يحبك هو أيضاً أم لا مع عدم معرفته بدوره بحبك له، تجد نفسك أمام رغبة جامحة ترفض كل منطق

[12] الكلمة بالانجليزية بمعنى البتة أو أبدا.

وموضوعية وبين عقل قاس يتوعدك بالوهم ويأمرك بالتراجع القاتل.. بالنسبة لي كنت متفائلاً، رحبت حقاً بالتواصل مهما يكن من شأنه، أردت حقاً أن تنعم ضياء بقليل من تماس القلوب الرهيب، أن تشعر بغبطة ديكارت نتيجة اجتماع النصفين وبلوغ ذروة الكمال بتحقيق رغبة الحب..

- تعرفين أن البدايات أحياناً لا تكون صريحة. إننا في مجتمع يستحي من الحب ويكاد يعتبره خطيئة.. حتى اختصرناه بكل الجهل المتراكم بداخلنا في الجنس..

- هل تظن أنه سيرسل رسائل أخرى أكثر جرأة؟

- كوني أيضا جريئة إذا استطعت..

بدت متفائلة شيئاً ما، لكن مع لمحة تردد هائلة تشع من عينيها الصغيرتين، أعرف تماماً أنها لن تستطيع التخلص من كونها فتاة عربية، أو لنقل فتاة متشبعة بثقافة مشوهة للغاية، خاصة وأننا في مفترق طرق، إما رجعية متخلفة تغط في عجز مكين أو قشور تقدمية تتلهف إلى مظاهر خادعة لا تفعل أكثر من إلباس السقم ثوب تحضر مثير للسخرية..

فكرت فيما إذا كان بإمكاني أن أفعل شيئاً، لم أكن أحب أن أتدخل في أمور الآخرين ولو كانوا إخوتي لإيماني بضرورة أن يصنعوا حياتهم بأنفسهم، أن يخطئوا، أن يجربوا ويتعلموا من تجاربهم، أصلا لم يكن أحد منهما يحب نصائحي حتى.. مع ذلك قررت فجأة أن أتدخل وأكون "كيوبيد"، أغرز سهم العشق في قلبين مترددين، خائفين.

كانت فكرتي أن ألتقي بحبيب ضياء المفترض، هذا الذي يسبب لها هذا الألم اللذيذ الوجع دون أن يفعل بإرادته عن سابق إصرار وترصد، عجباً! خاصة بعد إرساله لرسالة هاتفية لها مهما يكن محتواها، لن أغامر بتأويلها لصالح الحب هكذا بلا مقدمات، سأحرص في البداية على جس النبض بطريقة ما حتى أستيقن من جدوى تدخلي كـ"مرسول" للحب مفترض.. سوف أرتكب ذنبا شنيعا عاديا في ثقافتنا المبنية على انعدام الخصوصية وغياب إمكانية الثقة وأبحث في هاتف ضياء عن رقم فارس الأحلام حتى أتمكن من ترتيب خطتي وتحقيقها. سأعترف لها لاحقاً بعد التجربة..

****

- أنت زميل ضياء؟

- نعم.. أنت هاتفتني؟

- هل عرفتني؟

ابتلع ريقه وكأني به عبد أدخل الجنة وما لبث أن خطا خطوة صوبها حتى أخبروه بأنهم ارتكبوا خطأ فَسِيقَ إلى جهنم.. بدا لي شخصاً لطيفاً، ملامحه تنم عن طيبة ممتزجة بحسن خلق، لم يكن ممكنا أن أجزم ولكن أحاسيسنا لم تمنح لنا لكي تخدعنا باستمرار، كثيراً ما تفلح نظرة خاطفة في خلق انطباع سرعان ما يتبين صحته وصدقه، تفاءلت. كدت أضحك وأنا أراقب توتره العظيم رغم محاولته الهدوء.

- أنت إسماعيل..

- ..

- وأنا أخ ضياء.

تفاجأ شيئا ما واختلط عليه الأمر، لم يستطع أن ينبس ببنت شفة لوهلة..

- أنا أعرف كل شيء..

ازدادت حيرته، ابتسم ابتسامة بليدة للغاية، عندها تأكدت تماماً من أن جملتي الماكرة أَلْفَتْ ما كنت أبحث عنه، ما كنت أريد أن أتحقق منه لكي أحسم مسألة هذا الحب المعذب.. لقد كشف الحجاب عن مشاعر خائفة مسكونة بحياء العار عوض أن تكون محفوفة بنبل الغاية ورقي السلوك.. جميعنا عشنا هذا الكبت البشع الذي حول حياتنا إلى حرمان مركب يجمع بين ما حرمنا منه حقا لأنه لم يكن في متناولنا وما حرمونا منه رغم بساطته فحرمنا أنفسنا منه بعجزنا عن الخروج من الصندوق المسيج بالنبذ والرفض والإقصاء.. قرأت في وجه إسماعيل بامتعاض ذلك الحياء المخزي الذي يخفي ثورة مشروعة لا بد لها أن تتحصن بالتحضر لكي تعلن عن نفسها دون خجل ولا وجل للجميع..

- أنت تحبها؟

- نعم غرضي شريف..

- سؤالي واضح، لم آتِ هناك لكي أحاسبك على مشاعرك.. يمكنك أن تستبدل فكرتك عني بفكرة مغايرة واضحة لا تخفي نية سيئة..

شعرت بأن العاشق قد تنفس الصعداء، لاحت على قسماته راحة وانفرجت أسارير سحنته، كأني به خرج من سجن ما للتو..

- حسنا، أرجو فقط أن يكون حباً حقيقياً لا مجرد نزوة طارئة..

- لا..

- لا تجب الآن، إذا كنت تحبها حقاً ستكتشف ذلك لا محالة، فقط خذا وقتكما وكونا صبورين، الحب مثل سؤال فلسفي لا جواب نهائي له إلا الحب نفسه..

- لا أعرف ماذا أقول..

- هناك شيء واحد. ضياء أختي الوحيدة.. ومن الممكن أن ينقلب تفهمي من أجلها إلى غباء شديد من أجلها أيضاً..

انصرفت مسروراً بعد أن ودعت إسماعيل بعبارتي التي لم أتحرج في تضمينها تهديدا صريحا بتلقائية، ضياء بالنسبة لي ابنتي قبل أن تكون أختي، أريدها أن تكون في وضع جيد فقط.. تخيلت كم ستطير من الفرح عندما أخبرها بما حدث بيني وبين حبها المؤلم سابقا، لا شيء أكثر

أسطورية من حب متبادل.. بينما كنت أصوغ سيناريوهات ما سيحدث عندما أدلي لضياء بحب إسماعيل، وقع نظري على رضا، لم يكن وحيداً، ولا برفقة أصدقائه كالعادة.. لم أصدق الأمر في البداية، لقد كان برفقة فتاة هو الذي لم يسبق له أن عاش تجربة حب على حد علمي، كان يصرح دائماً بذلك، قائلاً بأن ليس لديه وقت لتضييعه في العلاقات التافهة، مع أن لا أحد طلب منه أن يقيم علاقة مشبوهة بأنثى.. هي فقط تداعيات التربية على التحريم والتجريم.. حتى لو لم يقل ذلك بنفسه، ما كنا إلا لنستنتج ذلك، فما سبق أن رأيناه شاردا ولا حالما أو شاعرا بألم غير عضوي.. ها هو الآن أمامي، وبالحجة الدامغة؛ ما إن تلاقت أعيننا حتى سحب يده من يد البنت بخفة لم تفلح في مراوغة مقلتي. الأمر واضح جداً. أومأ إليّ أن لا أحرجه، ابتسمت بمكر شديد وتابعت المسير بعد أن غمزته ليحمر وجهه خجلاً ويسرع مبتعداً عن مرمى ملاحقتي لهما.. شعرت بسعادة غامرة وأنا أعيش لحظات صار فيها إخوتي عاشقين، لم يكن ذلك شيئاً بسيطاً أو عادياً هيّناً.. حتى لو تعلق الأمر بتجارب قد تفشل، لا يهم.. فالحياة ليست خريطة كنز، إنها رحلة اكتمال وإرادة اكتمال لا يكتمل إلا عندما لا نريد

ذلك أو لا نفعل شيئاً لكي نتخلص من الوصاية والبلادة.. الأهم أن يكتشفا الحب أخيراً بعد طفولة قاسية ونضج مبكر متردد.

****

فتحت عيني على رسالة والدي الصوتية، فعلاً كدت أنسى أني فوت زيارته بأسبوع تقريباً عن المعتاد، انتابني شعور بين الذنب والتبرير، اخترت ألا أطاوع كبريائي، أحياناً لا فائدة من السماح للنفس بمجادلات لا قيمة لها، اللّهُمَّ تلبية أنانية مفرطة في التفاهة تحت ذرائع جهنمية لا ندرك حقيقتها الغبية إلا عندما نهدأ وتصير بيننا وبينها مسافة كافية وحقيقية.. نحتاج إلى قليل من الصمت، بطء في كلامنا الداخلي، عدم السماح للفوضى بأن تخلق ثورات شبيهة بهروب الحمير إثر كَيّ الأبقار[13] .. لم يكن شعوري وليد حكمة تماما، كنت سعيدا لدرجة من الصعب توصيفها، امتلاء باعث على الرغبة في التحليق بعيدا، هناك في أماكن فريدة من الكرة الأرضية، كما لو كانت تلك الفضاءات التي لم يسبق أن زرناها في مجرة أخرى يمكننا فيها أن نخرق الحدود والعوائق، بل حتى طبيعتنا كبشر. أجزم بأن ضياء لما عرفت بحب إسماعيل لم تعد أنثى بشرية، تصورتها كملاك مضيء في تلك اللحظة، عانقتني بعنف وارتباك، حتى لم تقل أدنى كلمة. بل لم تدل بأدنى ملاحظة في شأن اختراق خصوصية هاتفها وإن لاحقاً. كما لو صارت شخصاً آخر..

[13] تبيئة عربية لمثل دارج مفاده: الكي في البقر والحمير تقفز.

رضا الذي لم يكن يهتم لشيء ويقضي معظم وقته في الصراخ والصراعات سواء داخل البيت أو خارجه، حضّر طعام الإفطار.. شعرت كما لو أن التاريخ نفض عنه كل غبار الماضي وقرر أن يبدأ بداية جديدة، أو كأنه للتو بدأ ودخل تجربة الوجود.

- يبدو أنّ حماراً مات[14] ..

- ألا تَنْفُق الحمير.. أجابني رضا مقهقها.

- حتى أنك لم تثر في وجه ملاحظتي..

لم يعرني انتباها واستمر منهمكا في تحضير المائدة تساعده ضياء التي كانت بالأمس بمثابة الفأر "جيري" بالنسبة له هو "توم" العنيف والمشاغب..

أجمل شيء، كانت نظرات أمي المفعمة بالسعادة، لا أذكر أني رأيت مثل هذه الإشراقة على محياها الملائكي، عشنا لحظات فرح انتزعناها نزعاً من بؤسنا على الدوام، لكن هذه المرة كان الأمر مختلفاً جداً. لم تكن ابتسامتها مجرد رسمة على وجهها، لقد أبصرت شعاعاً في عينيها يمتد إلى عمق قلبها ودواخلها، شعرت بذلك بقوة كما لو كنتها لثوان معدودة، ليس مستحيلاً

[14] تبيئة عربية لقول دارج بمعنى قيام شخص بفعل أو تصرف خارج عادته بشكل غير متوقع

تماماً أن نعجز عن عيش تجارب الآخرين ولو لردهات شبه لا زمنية، كأننا نتسلل بسرعة الضوء ودون مقدمات إلى ذوات من نحبهم خاصة أمهاتنا ونتماهى كأرواح لطيفة خارقة لكي نقطف تلك السعادة المستحيلة في عالمنا المحدود.. عادت إلي كل الأحداث المؤلمة كأنها شريط سريع بالأبيض والأسود، ربما لا يمكن نسيان الكثير منها، يظل محفورا في ذاكرتنا، لكن قوة اللحظة قاتلة، هذا يجدر به أن يعلمنا باستمرار أن نصر على السعادة في أوج الوجع، نتعلم كيف نحيا ألمنا بذكاء حتى لو بكينا وانتحبنا، يئسنا وتجرعنا مرارات.. هو تمرين الحياة الأقسى، لأنه تعلم حيّ وليس مجرد محاكاة أو دروساً نظرية. أهم شيء في ذلك الصباح كان أن أغتنم رفقة والدتي وإخوتي فرصة لا تتكرر وقد تكون مفتاحا للقادم من الأيام يجعلنا نتجاوز أنفسنا أو نصل إلى أفقها المنتصر رغم المجهول والمبهم، رغم الخوف من المستقبل..

قبلت يد أمي، نهضت لكي أغير ثيابي حتى لا أتأخر عن والدي. رسالته على الواتساب ذكرتني بفيروز: زوروني كل سنة مرة.. لقد تغير كثيراً، أصبح أكثر سخرية وبساطة، لم أعهده إلا صلباً قاسياً ومهملاً. ربما حقاً ما حدث؛ الطلاق، اختياره لدار العجزة.. جعله يتغير فعلاً، عامل التقدم في السن،

لقاؤه بآخرين في الدار واحتكاكه بتجاربهم.. لم أكن أتصوره فعلاً شخصاً آخر، خاصة عندما أعود إلى الطفولة. في الأخير من منا لا يتغير؟ من الصعب أن نظل ما نحن عليه أو نحافظ على مزاج فترة ما كنمط نهائي لشخصيتنا. حتى هتلر كان في فترة ما فنانا، ومن يدري عندما اختفى أو مات ما الذي فكر فيه أو تمناه، أن يعود الزمن إلى الوراء حتى يرسم عالماً أقل عنفاً..

لم أجد مفاتيح السيارة، خشيت أن أكون نسيتها بداخلها، يعني تركت السيارة دون إغلاق، أسرعت حتى أتأكد. كان رضا هناك يحمل المفاتيح في يده، ضياء متأنقة تبتسم بشغب، والدتي أيضا برفقتهما متحمسة، شامخة بأريحية تشفي الصدور. ترددت: هل أصدق الأمر؟ هل يمكن أن نتحدى حقا نوازع أنفسنا؟ نتجاوز المكابرة حتى وإن كانت مشاعرنا السلبية مشروعة؟

تخيلت منظر والدي، مشدوها يحدق فينا بغرابة وأمل.. في الطريق لم أرج ألا تطفو على سطح اللقاء ذكريات قاتمة، أملت أن نستطيع المواجهة، أن ندوس كل شيء من أجل الحب.. من أجل إمكانية الحب التي تسكن قلب الكراهية، الحقد، الغرور...

أنشدت في داخلي مع درويش ذي السحنة الطفلة مهما بدا مثقلا بالهم والوجع والألم ومع ذلك لم يفرغ من الحب أو محاولة الحب: على هذه الأرض، ما يستحق الحياة.. الألم.. الحب المؤلم للغاية.

****

# تمت بحمد الله

**نتألم أفضل بالحب**

**رواية**

**توفيق بوشري**

**الطبعة الأولى**
**1442 هـ 2020 م**
**دار ديوان العرب للنشر والتوزيع**
**مصر – بورسعيد**
**جوال: 00201211132879**

**E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com**